رحلة (بوركارد ستراسبورج)[1]

ترجمة: أحمد معروف[*]

* بين يدي النص:

هذه ترجمة نص رحلة (بوركارد) (Burchardus)، الذي ورد أن اسمه أيضًا (جيرارد) (Gerardum)، وهو رحالة ألماني، شغل منصب نائب أسقف مدينة (ستراسبورج) (Strasbourg) الألمانية [٢]، المعروفة أيضًا باسم (أرجنتيننسم) (Argentinensem)، أو (أرجنتوراتنسيس) (Argentoratensis)، ولقد أرسله إمبراطور ألمانيا «فردريك الأول»، (المعروف باسم باربروسا)، (٥٤٧-٥٨٦هـ = ١١٥٢- ١١٩٠م)، عام (٥٧١هـ = ١١٧٥)، سفيرًا إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧- ٥٨٩هـ = ١١٧١- ١١٩٣م)، في إطار منظومة العلاقات الدبلوماسية التي تشكلت بين الطرفين، تلك التي سبقت استرداد صلاح الدين مدينة بيت المقدس، بجانب كثير من الممتلكات الصليبية الأخرى، عقب معركة (حطين)، (٥٨٣هـ = ١١٧٨م)، ومع هذا فلم يرد بالنص شيء عن تفاصيل ونتائج تلك السفارة، التي يُرجَّح استمرارها إلى العام التالي؛ حيث طلب السفيرُ صلاحَ الدين بمصر، فلما كان الأخير قد توجه إلى الشام -في إطار صراعه مع النوريين والزنكيين- فقد تبعه إلى هناك الرحالة السفير، الذي ربما شفع سفارته بالحج إلى بيت المقدس، بعد أن توجَّه حاجًّا

---

(1) Burchardus Argentoratensis (Strasbourg), de Statu Egypti vel Babylonie, in: Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum (I.H.C), Sandoli S., Gerusalemme, 1980, vol. 2.

(*) مدرس مساعد بكلية دار العلوم القاهرة، مصر. البريد الإلكتروني: a.marouf21@gmail.com

(٢) كانت (ستراسبورج) واقعة آنذاك ضمن حدود ألمانيا، قبل أن تصبح فرنسية فيما بعد.

إلى مدينة (صَيْدنايا) الواقعة بالقرب من دمشق، وقبل أن يعود أخيرًا من حيث أتى، ويلاحَظ أنه لم يُعْنَ كثيرًا برصد تفاصيل رحلة عودته إلى أوروبا، على الرغم من عنايته بذكر تفاصيل مسار الرحلة بشكل عام.

ولم تكن العناية برصد تفاصيل الرحلة نهجًا شائعًا في تدوين الرحلات الأوروبية آنذاك، غير أنها لم تمثل مناط التميز الوحيد لهذه الرحلة أو لصاحبها أو لما تمخض عنها من أثر؛ فلئن فرضت تجربة الارتحال على (بوركارد) -استجابة للهدف- تركيزَ رحلته على البلدان الإسلامية، فقد سجل النص -تأسيسًا على هذا- حضورًا مركزيًا للمسلمين وما يخصهم على أصعدة شتى، الأمر الذي لم يكن بدوره مألوفًا لدى الرحالة اللاتين الذي زاروا الشرق الأدنى من قبْلِ التغيرات الجيوسياسية التي نتجت عن توسعات صلاح الدين على حساب الصليبيين في بلاد الشام.

ومهما يكن من أمر، فقد بلور النص للمسلمين صورة متعددة الجوانب موضوعية الطابع، جعلت الرحالة المذكور نسيجَ وحدِه في هذا الشأن، على الأقل مقارنة بنظرائه اللاتين إبَّان الحقبة الصليبية؛ فكثيرًا ما صدَّر حديثه عن المسلمين بعبارات من مثل: يؤمن المسلمون، ثم يروي المحتوى خاليًا -أو يكاد- من ظلال الانحياز المستحسِن أو المستهجِن، وإن لم ينفِ هذا وجود بعض المعلومات غير الدقيقة، بل غير الصحيحة على الإطلاق، مثلما لم ينفِ رؤيته للمسلمين بوصفهم آخر يمثل عنصرَ الغرابة الرئيس، الذي لم يكن للأوروبيين به عهد؛ الأمر الذي يتأسس على وعد الرحالة -في مستهل نص رحلته- برواية ما هو غريب من الأمور من ناحية، ثم تركيزه -في روايته تلك- على المسلمين من ناحية أخرى.

وتتعزز أهمية النص بالنظر إلى تأثيره؛ فقد قدم (بوركارد) إحدى أقدم الروايات اللاتينية بشأن طائفة الحشاشين (إن لم تكن الأقدم على الإطلاق)؛ مما أسهم في ترسيخ معلومات وأفكار ظلت طويلًا صاحبة الهيمنة على وعي الأوروبيين في هذا الإطار، كما بادر المؤرخ الألماني (أرنولد فون لوبيك)، (Arnold von lubeck)، (ت ٦٠٨ أو ٦١١هـ = ١٢١١ أو ١٢١٤م) إلى إيراد العمل كاملًا ضمن كتابه (تواريخ السلاف)، (Chronica Slavorum)، بوصفه مصدرًا لتشكيل خلفية معرفية تخص المسلمين وما يتصل بهم؛ مما يدعم تأثير الرحلة في هذا الميدان.

وفي عام (١٧١٠م) نشِر في (هانوفر)، كتاب (تواريخ السلاف) هذا، بما فيه الأصل اللاتيني لرحلة (بوركاردستراسبورج) ضمن كتاب: (scriptorumbrunsuicen siaillustrantium)[١]. ومن أبرز الجهود الأخرى التي بذلت في سبيل نشر الرحلة وترجمتها، ما قام به رجل الدين الإيطالي (سابينو دي ساندولي)، (Sabino de Sandoli)، وذلك في كتابه: (Itinera Hierosolymitana Crucesignatorum، I.H.C)) المنشور بالقدس، حيث أورد -ضمن المجلد الثاني الصادر عام (١٩٨٠م)- نص الرحلة بلغته اللاتينية بجانب ترجمة إيطالية، وذلك تحت عنوان: (De Statu Egypti vel Babylonie)، مع تقسيم النص إلى فصول داخلية لكل منها عنوان مستقل، ولقد أبقى توطئة المؤرخ (أرنولد) وتذييله للرحلة دون سائر مؤرَّخته، كما صدَّر العمل بمقدمة عن الرحلة وصاحبها، وذيَّله بجملة من الحواشي[٢]، وعلى هذه النشرة كان معتمَد هذه الترجمة، التي نقلت النص من لغته اللاتينية إلى اللغة العربية.

ولقد حرصت الترجمة -قدر الإمكان- على إبراز النسق الثقافي الذي أنتج وعيَ الرحالة في أوضح تجلياته؛ لا سيما فيما يتعلق بجدلية الذات اللاتينية التي تمثل المتحدِّث، والآخر المسلم الذي يمثل المتحدَّث عنه؛ ولقد تبدى هذا في عملية النقل المباشر لأسماء الأعلام والمصطلحات المؤثرة في هذا الشأن، بجانب ترْك أفكار الرحالة تنساب على الترتيب الذي أراد، وعلى النسق الذي ارتأى، بقطع النظر عن درجة حضور الرابط المنطقي بينها، كما أضاف المترجم عددًا من الحواشي التي قدمت تفسيرات موضِّحَة، وحملت تعريفات مهمة.

نص الترجمة

مقدمة المؤرخ (أرنولد):

فلنترك تاريخ ملوكنا قليلًا، ولننتقل إلى حقائق أخرى علمناها، سوف يفيد منها القرَّاءُ معرفةً، وذلك عبر رحلة إلى مصر وأجزاء من ليبيا؛ ففي سنة (١١٧٥) لتجسد الرب، أرسل الإمبراطور الروماني والأغسطس (فردريك)، السيدَ (جيرارد) (Gerardum)، نائب أسقف (أرجنتيننسم) (ستراسبورج)، إلى مصر (Egyptum)؛ حيث (صلاح الدين ملك بابليون)، (SalahadinumregemBabylonie)، والآن انتبهوا لكلام الشخص المذكور نفسه!

(١) احتل نص الرحلة ما بين (صفحتي/ ٧٣١- ٧٣٦) من المجلد الثاني.

(٢) احتل نص الرحلة اللاتيني والترجمة الإيطالية ما بين (صفحتي/ ٣٩٥- ٤١١) من المجلد المذكور، بخلاف المقدمة والحواشي.

■ الفصل الأول

من ميناء (جنوة) إلى شواطئ ليبيا

الحـقَّ أقـول لقـد أرسِـلتُ رسـولًا. ولقـد تحرَّيـت الصـدق إذ دوَّنـتُ مـا شـهدته وتعلمتـه -في سـفارتي- مـن الأمـور النـادرة، والأشـياء الغريبـة عـن شـعبنا، سـواء أكنـت قـد رأيتهـا بـرًّا أم عاينتهـا عـبر البحـر. ففـي السـادس مـن سـبتمبر كان ركـوبي البحـر مـن (جنـوة)، ثـم كان عبـوري بـين جزيرتـين؛ تعـرف إحداهـما باسـم (كورسـيكا) (Corsicam)[1]، ويطلـق عـلى الأخـرى (سردينيـا) (Sardiniam)[2]، وبـين الجزيرتـين أربعـة أميـال، وقـد تمتعـت كل منهـما بروعـة فائقـة، تجلـت في منظـر السـهول، مثلـما تجسـدت في الجبـال المنتـشرة، مـع بَسْـطة في خـيرات الأرض كافـة.

أمَّا في (كورسـيكا) فسـمات النـاس -مـن الجنسَـيْن- نظـام، وخلـق قويـم، مـع يُـسْر في المعاملة، وإكـرام للضيف، ويبرُز الرجال هناك محاربـين أشـداء وشـجعانًا. وعـلى العكـس سـكان (سردينيـا) فهـم في فـوضى، سـماتهم فظاظـة وجُبْن وبخـل، والرجال هناك مخنّثون ومشـوَّهون، غـير أن الذئـاب لا تعرف طريقها إلى تلـك الجزيـرة، ثـم إن بحـر (سردينيـا) شـديد الخطـر هائج، بما يفـوق سـائر البحار. يبلـغ طـول (سردينيـا) وعرضهـا -مـن أطرافها كافـة- مسـيرة سـتة أيـام، وهـي موضـع غـير صحـي، بينـما تمتـد (كورسـيكا) ثلاثـة أيـام بالطـول والعـرض، وتنعـم أرضهـا بأتـم صحـة، فيـما عـدا نهـرًا صغـيرًا تـضر مياهُـه، فـإذا شرب منهـا أيٌّ مـن الأحيـاء مـات، وإذا طـار بجانبهـا أيٌّ مـن الطيـور هلـك.

يبلـغ طـول (سردينيـا) وعرضهـا -مـن أطرافهـا كافـة- مسـيرة سـتة أيـام، وهـي موضـع غـير صحـي، بينـما تمتـد (كورسـيكا) ثلاثـة أيـام بالطـول والعـرض، وتنعـم أرضهـا بأتـم صحـة، فيـما عـدا نهـرًا صغـيرًا تـضر مياهُـه، فـإذا شرب منهـا أيٌّ مـن الأحيـاء مـات، وإذا طـار بجانبهـا أيٌّ مـن الطيـور هلك.

وبعـد تجـاوُز هاتـين الجزيرتـين ذهبـتُ إلى (صقليـة)، وهـي جزيـرة صحيـة، خصبـة أرضهـا للغايـة في كل الأنحـاء، مـع اسـتواء يتخللـه جبـال، كـما أن فيهـا الكـروم والمـروج والمراعـي، وفيهـا الينابيـع تمنـح الحيـاة، والأنهـار الصافيـة، مـع مختلـف أنـواع الثـمار والأعشـاب. وتجـري تيـارات البحـر

(١) (كورسـيكا)، أو (قرسـقة): جزيـرة قـرب (سردينيـة)، تفصلهـا أربعـة أيـام عـن سـاحل تونـس. انظـر: الحمـيري (محمـد بـن عبـد المنعـم): الـروض المعطـار في خـبر الأقطـار، تحقيـق: إحسـان عبـاس، مكتبـة لبنـان، بـيروت، (١٩٨٤م)، (ص/ ٤٥٥).

(٢) (سردينيـة): جزيـرة عـلى طـرف البحـر الشـامي (المتوسـط). انظـر: نفسـه، (ص/ ٣١٤).

إلى تلك الجزيرة على هيئة الصليب[١]، وهي شديدة الملاءمة لنشاط التجار، لكن عدد سكانها من البشر قليل، في مساحة تبلغ -من جميع الجهات- مسيرة ستة أيام، وتضم عديد المدن. وبالقرب من (صقلية)، على بعد عشرين ميلًا منها، في مواجهة أحد جوانبها، تقع جزيرة (مالطة) (Maltha)[٢]، المسكونة بالمسلمين (Sarracenis)، والخاضعة لحكم ملك (صقلية)[٣].

وهناك جزيرة أخرى، ليست ببعيدة عن (مالطة)، يقال لها (بنتاليون) (Panteleon)[٤]؛ حيث يسكنها المسلمون (Sarraceni)، مستقلين لا يخضعون لسيادة غيرهم عليهم. والحق أن الناس هناك يعيشون حياة بدائية، ويحيون جبناء ساكنين كهوفَ بلادهم، حتى إذا هاجمهم جيش كثيف، فروا إليها بأمتعتهم؛ إذ هي إما تعين على المدافعة، وإما لعلها تكون مهربًا وسبيلًا إلى النجاة، ثم إن هذا الجنس من البشر يتقوَّت بالضأن (الماشية) أكثر من ثمار الأرض؛ فالزراعة هناك جد قليلة.

وبعد مرور ستة من الأيام على الرحيل عن تلك الجزيرة، بلغتُ أرض البربر (Barbaricam) التي يسكنها جنس من البشر يعرف بالعرب (Arabitis)[٥]، وهؤلاء لا يسكنون بيوتًا، بل يعيشون في الهواء الطلق، ويفترشون أنحاء العراء؛ معللين هذا بقولهم إن الحياة مدة قصيرة يصح أن تهمَل فيها البيوت والسُّكْنَى؛ انتظارًا لمكافأة الرب. والأرض هناك قليل ثمارها؛ فلا قوت للسكان إلا الماشية (الضأن) التي يربونها، ويسير الرجال والنساء في شبه عُرْي، فيما عدا سترْهم العورات بقطعة من ثوب رَثٍّ، ويعيش هؤلاء الناس في فقر مدقع، محرومين من كل راحة، مجرَّدين من كل سلاح، وهم عراة وسود، في مناظرهم قبْح، وفي أجسادهم وهْن. ولمدة سبعة وأربعين يومًا في البحر، رأيت أسماكًا مختلفة الضروب؛ فلقد أبصرتُ إحداها وكانت ضخمة بطول ثلاثمائة وأربعين ذراعًا، بحسب ما أمكنني التقدير، وعاينتُ منها ما كان فوق البحر يتقافز بارتفاع يعادل رمية من قوس أو ضربة بمنجنيق.

(١) تتقاطع أركان الجزيرة مع تيارات المياه، محدِثة ما يشبه الصليب.
Sandoli, I.H.C., Gerusalemme, 1980, vol. 2., P. 412.

(٢) (مالطة): جزيرة في البحر المتوسط، تقع قرب (صقلية). انظر: الحميري، السابق، (ص/ ٥٢٠).

(٣) الملك هو (وليم الثاني)، (٥٦١- ٥٨٥هـ = ١١٦٦- ١١٨٩م).

(٤) هي جزيرة (Pantelleria) تقع بالقرب من (صقلية)، وتسمى بالعربية (قَوْصَرة)، وهي جزيرة ببحر الروم (المتوسط) بين المهدية و(صقلية). انظر: الحموي (شهاب الدين ياقوت): «معجم البلدان»، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م)، (٤/ ٤٦٩).

(٥) من المحتمل أنه يقصد طرابلس، (الغرب).
Sandoli, Loc. cit.

■ الفصل الثاني

عن مدينة الإسكندرية

وأخيرًا دخلتُ ميناء الإسكندرية (Alexandrie)؛ حيث ينتصب برج حجري شاهق الارتفاع[١]؛ كي يُظهِر الميناءَ للبحارة؛ لأن أرض مصر (Egyptus) مستوية؛ ولهذا تظل النيران بالبرج طوال الليل مشتعلة؛ فيتجلى الميناء أمام الذين يقرَبونه؛ وفي ذلك حفظ لهم من التيه. والإسكندرية مدينة ذات صيت ذائع، زاخرة بالبيوت المزخرفة، محاطة بالبساتين، مسكونة بما لا يحصى من السكان الموزعين بين مسلمين (Sarracenis)، ويهود ومسيحيين، وهم جميعًا خاضعون لحكم (ملك بابليون) (regisBabylonie)[٢]. وتدل الآثار العظيمة المنتشرة هناك على أن المدينة بُنيت في الزمن القديم، وهي إذ يمتد طولها أربعة أميال، فإن عرضها ميل وحيد، وإذ يلتقيها فرع من الفرات (Eufrate)[٣] في أحد الجوانب، فإن البحر العظيم (mare Magnum)[٤] يكفُل حمايتها من الجوانب الأخرى، ولقد انحصرت المدينة -في الوقت الراهن- ضمن سهل كبير، كوَّنه فرع النيل (Nili) المذكور، الذي يمتد حتى يبلغ البحر، فمن الواجب أن تعلم أن النيل والفرات كليهما واحد، وأن مياه هذا هي نفسها مياه ذاك[٥]. في الإسكندرية يتبع كل جنس شريعته (legem) اتباعًا حرًّا (libere)، والأجواء هناك تحفظ الصحة؛ فلقد وجدت كثيرين عُمِّروا مائة عام أو يزيد، والمدينة مطوقة بسور منخفض خلو من الخنادق، واعلم أن الميناء المذكور يحصِّل من الرسوم سنويًا ما يقدَّر بخمسين ألف قطعة ذهبية، أي ما يعادل أكثر من ثمانية آلاف (مارك) (marcas) من الفضة الخالصة.

والإسكندرية مدينة ذات صيت ذائع، زاخرة بالبيوت المزخرفة، محاطة بالبساتين، مسكونة بما لا يحصى من السكان الموزعين بين مسلمين (Sarracenis)، ويهود ومسيحيين، وهم جميعًا خاضعون لحكم (ملك بابليون) (regisBabylonie).

يفد على المدينة أيضًا مختلف الأجناس البشرية، مصطحبة معها بضائعها التجارية، وليس في الإسكندرية مياه عذبة، إلا ما يأتيها من فرع النيل المذكور أعلاه، حيث تجمَع مياهه

(١) يقصد منارة الإسكندرية.

(٢) يقصد سلطان مصر.

(٣) يقصد بالفرات النيل، كما سيأتي.

(٤) يقصد البحر المتوسط. (Ibid).

(٥) كان الأوروبيون يعتقدون في العصور الوسطى أن الفرات يمضي غربًا ليمر تحت البحر الأحمر، ثم يظهر مرة أخرى في صحراء مصر ليجاور النيل أو يختلط بالنيل نفسه، كما أنهما ينبعان معًا من الجنة. (Ibid).

في صهاريج مرة واحدة في كل العام. في المدينة نفسها وفرة من الكنائس المسيحية، من بينها كنيسة القديس (مرقص الإنجيلي) الواقعة خارج أسوار المدينة الجديدة[١]، والمطلة على البحر، وهناك رأيت سبعة عشر ضريحًا حافلًا بعظام ودماء عدد من الشهداء المجهولة أسماؤهم، ورأيتُ أيضًا البِيعة التي كتب فيها الإنجيلي نفسه نص إنجيله، وذلك في الموضع الذي استشهِد فيه وقبِر، ولقد ظل مقبورًا هناك حتى سرقه (البنادقة) (venetis)، وفي تلك الكنيسة يُنتخَب البطريرك (patriarcha)، وفيها يكَرَّس، وفيها يُدفَن حين يتنيَّح، وهو ذلك البطريرك المسيحي الذي يتبع كنيسة (الإغريق) (Grecorum)[٢]. ولقد حوت المدينة قصرًا عظيمًا لفرعون (pharaonis)، قام على عدد من الأعمدة الرخامية الضخمة، التي بقيت آثارها حتى اليوم بادية.

رأيت أيضًا -قرب الإسكندرية- جريان النيل في السهل عبر القناة المذكورة، خلال مجرى ضيق، وهناك تستحيل المياه -في بعض الأحيان- مِلْحًا صافيًا وجميلًا، من دون أي جهد أو تدَخُّل من بشر، وقد دأب النيل أن يفيض في كل عام؛ ليروي أرض مصر كلها، ويحمل لها الإخصاب؛ إذ إن الأمطار هناك جد نادرة.

ويبدأ الفيضان في منتصف شهر يونيو ويستمر حتى عيد (الصليب المقدس)، ثم ينخفض منسوب المياه منذ ذلك الحين حتى عيد (غطاس الرب)[٣]. واعلم أنه بمجرد انحسار جريان المياه، ورؤية الأرض من تحتها، يسارع الفلاح إلى المحراث (لحرث الأرض)، ثم غرْس البذور في تربتها، ثم يكون حَصْد الحبوب في شهر مارس من كل عام، وينحصر إنتاج الأرض من الحبوب هناك في القمح وفي الشعير الجيد للغاية، بينما يجري حصد جميع أنواع البقول، وكذلك فواكه البساتين

(١) بنيت كنيسة القديس مرقص الإنجيلي أو البشير (صاحب أحد الأناجيل) على الشاطئ الشرقي للإسكندرية، ومع الفتح الإسلامي هدمت أسوار الإسكندرية -أو بعضها- وتقلص وجود المدينة، ثم أعيد بناء الأسوار زمن أحمد بن طولون (٢٥٤- ٢٧٠هـ = ٨٦٨- ٨٨٤م)، لكنها لم تطوِّق المدينة القديمة كلها، فخرجت مساحات كبيرة في شرق المدينة القديمة وجنوبها من نطاق المدينة الجديدة. انظر: السيد عبد العزيز سالم: «تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي»، دار المعارف، (ط. ١)، (١٩٦١م)، (ص/ ٣٣، ٤٦، ٥٠).

(٢) يقصد بطريرك الملكانيين (الأرثوذكس)، ولم يكن مقره بالإسكندرية، بل في القاهرة، بينما كانت الإسكندرية مقر بطريرك الأقباط اليعاقبة. انظر: المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، (١٩٩٨م)، (٣/ ٨٠٦، ٨٣٠)؛ قاسم عبد قاسم: أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (٢٠٠٣م)، (ص/ ٩٨- ١٠١).

(٣) يوافق عيد الصليب المقدس الرابع عشر من سبتمبر في كل عام، بينما يوافق عيد الغطاس-عند الكاثوليك- السادس من يناير. Herbert J., Thurston S. J., and Attwater D., Butler's Lives of The Saints, Christian Classics, Westminster, 1990, vol. 1, pp. 39- 42, vol. 3, pp. 551- 552.

والأعشاب، فيما بين عيد القديس (مارتن) (Martini)[١]، وشهر مارس من العام التالي. تلد الخراف والماعز هناك مرتين في كل عام، وفي كل مرة تلد على الأقل توأمًا، وسمعت أن الحمير تحبَل هناك من طرف الخيول.

ويعيش المسيحيون في أنحاء مصر كلها، يسكنون المدن مثلما يستقرون بالقرى، ويدفعون جزية معلومة إلى (ملك بابليون)، وقد جرت العادة بأن يكون في كل قرية كنيسة مسيحية، غير أن هذا الجنس من البشر يحيا في الفقر والبؤس.

■ الفصل الثالث

عن مدينة (بابليون) وعن البَلَسان ونبع مريم المباركة

اعلم أن السفر بين الإسكندرية و(بابليون الجديدة) (nova Babylonia)، يدوم ثلاثة أيام في البر، بينما يبلغ سبعة أيام من الصعود في الماء. واعلم أيضًا أن هناك ثلاثًا من المدن تحمل اسم (بابليون)؛ الأولى هي الواقعة على نهر (الخابور) (Chobar)[٢]، حكمها (نبوخذنصر) (Nabuchodonosor)[٣]، وكان فيها برج بابل، وتعرف بالصحراوية الخربة وبالقديمة، ويفصلها عن (بابليون الجديدة) أكثر من ثلاثين يومًا. أما (بابليون) الأخرى فكانت واقعة على النيل بأرض مصر، عند سفح جبل بالقرب من الصحراء، حكمها (فرعون) (pharaoh)، ويفصلها عن (بابليون الجديدة) مسيرة ستة أميال، وقد دمِّرت أيضًا[٤].

أما (بابليون الجديدة) ففي سهل يطل على النيل أيضًا، لقد كانت -في الماضي- هي المدينة العظمى (maxima civitas)، (العاصمة)[٥]، وهي -إلى اليوم- ذات صيت يبلغ منتهى الذيوع، فيها عدد من السكان كثيف، وفيها أجود ثمار الأرض كافة، ولا يسكنها إلا التجار؛ إذ تأتيها السفن محمَّلة بالتوابل الهندية، فتمضي منها عبر النيل حتى الإسكندرية. وفي كل مكان من شوارع تلك المدينة وساحاتها، تخزَّن الحبوب وتُحفَظ البقول. وعلى بُعد ميل من (بابليون الجديدة)، يوجد في الصحراء جبلان رائعان قدَّا من حَجَر الرخام الضخم، ومن حجر آخر

(١) يوافق الحادي عشر من نوفمبر في كل عام.
(Ibid., vol. 4, pp. 310- 313).

(٢) نهر الخابور: نهر في العراق، يصب في نهر الفرات، وقيل إنه الفرات نفسه. انظر: جورج بوست: «قاموس الكتاب المقدس»، بيروت، (١٨٩٤م)، (١/ ٤٠٢).

(٣) أحد حكام بابل قديمًا (٦٠٥- ٥٦١ ق. م)، يعرف أيضًا باسم (بختنصر). انظر: نفسه، (٢/ ٤١٢- ٤١٤).

(٤) يقصد حصن (بابليون) الروماني، الذي فتحه المسلمون، وأحلوا(الفسطاط)محله.انظر:الحموي:السابق،(٥/٥١٧).

(٥) يقصد (الفسطاط).

بديع مربع الشكل. ويفصل بين هذين الجبلين مسافة تقدر برمية قوس، وهما على هيئة المربع ذي المقاييس المتساوية، حيث يستوي فيهما الطول والعرض، ويعادل الطول مقدار رمية قوس قوية، بينما يبلغ الارتفاع مقدار رميتين[١].

وعلى بُعد ثلاثة أميال من (بابليون الجديدة) أيضًا، تقع مدينة أخرى ذائعة الصيت تسمى القاهرة Chayr، وهي الآن مقر الكرسي الملكي (sedesregalis)، كما تضم قصور المَلِك (Regis) والقادة، والثكنات العسكرية، وتقع هذه المدينة -ذات السمت العسكري- بالقرب من النيل، وتتسم مبانيها بروعة وفخامة، ويحيط بها سور وبساتين نضرة، ويسكنها المسلمون (Sarraceni)، واليهود والمسيحيون، وكل أمة بها تتبع شريعتها، ففيها للمسيحيين كنائس وافرة. وعلى بُعد ميل من تلك المدينة، يوجد بستان البَلَسان (balsami)، الذي تبلغ مساحته ما يقرب من نصف يوم من السير، وتنمو أشجار البلسان خلال ثلاث سنوات كحال أشجار الكروم، وتشبه أوراقها أوراقَ البرسيم الصغيرة، وتنضج حول نهايات شهر مايو، حينئذ يتشقق اللحاء -وفقًا لما هو معلوم لدى العمال- فيسيل النبيذ (vinee)[٢] قطرة تلو أخرى ليُجمَع في أوانٍ من زجاج، ثم يُخزّن مدفونًا في روث حمام لمدة ستة أشهر، ثم يُغلَى ويصفَّى، فيُفصَل السائل عن الشوائب.

ويُروَى هذا البستان من نبع بعينه، ولا يمكن أن يُروَى من نبع آخر أبدًا، واعلم أن البلسان لا ينمو في أي موضع آخر بالعالم أجمع. ولقد فرَّت العذراء المباركة مع مُخَلّصنا مسرعة إلى هذا النبع؛ هروبًا من اضطهاد (هيرودس) (Herodis)[٣]، فاختبأت وابنها في ذلك المكان بعض الوقت، وغسلت في النبع ملابس الطفل؛ استجابة لنداء الطبيعة البشرية[٤]؛ ولهذا يبجِّل المسلمون (Sarracenis) النبع المذكور حتى يومنا الحالي؛ فهم يغتسلون به حاملين إليه الشموع والبخور، وفي (عيد الغطاس) تحتشد هناك أعداد هائلة، تفد من كل الأماكن لتغتسل بالمياه المذكورة أعلاه. فوق هذا كله، يؤمن المسلمون

(١) يقصد الأهرام، ولم يكن الاقتصار على ذكر هرمين، وإغفال الثالث -لصغره- أمرًا غير مألوف في كتابات المسلمين. انظر مثلًا: ابن زولاق (الحسن بن إبراهيم): فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق: علي محمد عمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٩م)، (ص/ ٧٠)، ومن المسلمين من ذكر الثلاثة، ومنهم من زاد على هذا، مع تأكيد أن أكبر تلك الأهرام اثنان. انظر مثلًا: الحموي: السابق، (٥/ ٤٥٩). ولعله يقصد بالمربع قاعدة كل هرم.

(٢) يقصد الرحيق أو العصارة.

(٣) (هيرود): هو ملك بيت المقدس وما حولها، وقد أمر بقتل أطفال بيت لحم آملًا أن يكون بينهم المسيح. انظر: جورج بوست: السابق، (٢/ ٤٥٩، ٤٦٠).

(٤) يقصد الطبيعة البشرية في مقابل الطبيعة الإلهية للمسيح، حسبما يؤمن المسيحيون (الكاثوليك).

(Sarraceni) بأن العذراء المباركة حملت بيسوع المسيح عبر ملاك، وبعد ولادته بقيت عذراء كذلك، ويقولون بأن ابنها هذا كان نبيًا مقدسًا (sanctum prophetam)، وبأن الرب حمله -بروحه وجسده- إلى السماء حملًا معجزًا، وهم يحتفلون بيوم ميلاده، لكنهم ينكرون أنه ابن الرب، مثلما ينكرون تعميده وصلبه، وما وقع له من موت ودفن، وهم يزعمون أنهم يتبعون شريعة المسيح والرسل (apostolorum)[١]؛ لأنهم يختتنون بينما نحن لا نفعل، ويؤمنون أيضًا بأن هؤلاء الرسل كانوا أنبياء (prophetas)[٢]، كما يبجلون كثيرًا من الشهداء وكهنة الاعتراف.

يوجد بالقرب من مدينة القاهرة أيضًا شجرة نخيل عتيقة جدًّا، عالية إلى المنتهى، كانت قد انحنت للعذراء المباركة، حين جاءت مع مُخَلّصنا، فأخذت تجمع منها البلح، ثم عادت الشجرة وانتصبت من جديد، وحين رآها -بعد هذا- المسلمون (Sarraceni)، دفعهم حسد العذراء المباركة إلى قطع الشجرة في موضعين، لكنها عادت في الليلة التالية إلى انتصاب جديد، ويعد بالإمكان رؤية موضعي القطع حتى اليوم؛ إذ يبجل المسلمون (Sarraceni) الشجرة؛ فيضيئون الشموع لديها في كل ليلة[٣]. ولقد سكنت العذراء المباركة أماكن أخرى متنوعة بأرض مصر، تحظى جميعًا بتبجيل المسلمين (Sarracenis) والمسيحيين معًا.

(١) يقصد الحواريين.

(٢) للحواريين في الإسلام مكانة كبيرة، ولكن هذا لا يعني أنَّهم رسل وأنبياء، بجانب اختلاف مفهوم النبوة بين الإسلام والمسيحية.

■ الفصل الرابع

عن نهر النيل وحيوانات مصر والجنة عند المسلمين

تجري المياه بالنيل أو بالفرات فتفوق في المقدار ما بنهر (الراين) (Rheno)[٤]، ولئن كان نبع النهر المذكور في الجنة، فإن أحدًا من البشر لا يعرف شيئًا عن منبعه (الأرضي)، إلا بقدر ما تعَلمْناه من الكتاب المقدس، وللنهر مجرى تنحدر فيه المياهُ عنيفةً، وعلى وفرة ما به من الأسماك، إلا أنها ليست بجيدة، وفي النيل أيضًا تعيش خيول برية تختفي تحت الماء ثم تنطلق خارجة إلى البر[٥]، كما تنتشر التماسيح بلا عدد، وهي نوع من الحيوانات يشبه السحالي، لكل منها أربع من الأقدام، مع أرجل قصيرة وسميكة،

(٣) لعله يقصد هنا اختلاف استجابات المسلمين نحو الشجرة باختلاف العصور والأجيال.

(٤) (نهر الراين): هو نهر ينبع من جبال في سويسرا، وينطلق عبر ألمانيا، وفرنسا، إلى أن يصب في بحر الشمال.
Gilbert A., Geographical Dictionary of Milton, London, 1919, p. 244.

(٥) لعله يقصد فرس النهر. (Sandoli, Loc. Cit).

ورأس كـرأس أنثـى الخنزيـر، وبسـطة في الطـول والعـرض، وأسـنان بالغـة الضخامـة، فـإذا رأى أحـد التماسـيح طفـلًا أو حيوانًـا بعـد غـروب الشـمس، جعـل مآلـه الـردى. وعـلى مقربـة من إحـدى الكنائس المسـيحية القائمـة بمـصر كذلـك، توجـد بـئر تظـل جافـة طـوال أيـام العـام، إلا في وقت العيد السـنوي للكنيسـة المذكورة؛ فحينئذ يظهـر الماء ويعلو حتـى يبلـغ سـطح البـئر، ويبقـى المـاء هكـذا ثلاثـة أيـام؛ يفـد فيهـا المسـيحيون إلى هنـاك ليجـدوا منـه مـا يكفـي، حتـى إذا مـا قضيت أيـام العيـد، غـاض المـاء وعـاد كـما كان.

ولمـدة سـتة أيـام مـن مغـادرة (بابليـون الجديـدة)، يوجـد في الصحـراء حجـر الشـبّ المسـتخدم في الصباغـة؛ إذ يُقطـع مـن بعـض الجبـال هنـاك، ثـم يُجْمَـع لأجـل المَلِـك. وفي مـصر أصبـاغ بلون نيـلي، وفي مصر تكـثر أنواع الطيـور، وعـلى الرغم من توفّـر الذهب كثيفًا بأرضهـا، فإنـه لا يُجْمَـع مـن أي موضع هناك، مثلـما لا تجمـع الفضـة، ولا أي مـن سـائر صنـوف المعـادن. وفي مـصر أيضًـا تـربى خيول بغايـة الروعـة. وتطـير هناك أعـداد وفيرة من طائـر الببغاء، الذي يأتي مـن النوبة (Nubia)، مـع أن المسـافة بـين النوبـة و(بابليـون) تبلغ عشريـن يومًـا. والنوبـة بلد مسـيحي، يحكمه أحـد الملـوك، لكـن سـكانه بدائيـون، وأرضـه مغطـاة بالغابـات. وفي مـصر أيضـا يُـرَبَّى مـن الدجـاج عـددٌ يبلـغ -مـن دون الإنـاث- ألفًـا أو ألفـين؛ إذ تجمَـع الذكـور معًـا وتوضع على النـيران في فـرن (furno)؛ وذلـك مـن أجـل اسـتخدام المَلِـك. كـما أن مـصر بلـد شـديد الحـر، نـادر المطـر. ويبعـد جبـل سـيناء عـن (بابليـون) سـبعة أيـام من السـير في الصحراء.

يؤمـن المسـلمون (Sarraceni) أيضًـا بـأن جنتهـم عـلى الأرض، وبأنهـا تعقـب انقضـاء الأجـل، وبـأن بهـا مـن الأنهـار أربعـة؛ أولهـا مـن خمـر، وثانيهـا مـن لـبن، وثالثهـا مـن عسـل، ورابعهـا مـن مـاء، ويقولـون إن أنـواع الفواكـه جميعهـا تنمـو هنـاك، وفيهـا كل مـا يُشْـتَهى مـن طعـام أو شراب، وفي كل يـوم تطـوف عـلى كل منهـم عـذراء جديـدة[1]، فيقـع وطؤهـا طلبًـا للمتعـة وإشـباعًا للشـهوة، أمـا مـن مـات عـلى أيـدي المسـيحيين في سـاحة معركـة، فلـه أن يتمتـع كل يـوم بعـشر منهـن في الجنـة، ولمَّـا سـألتُ عـن مصـير النسـاء الـلائي يعشـن مـع هـؤلاء الرجـال الآن، أو مِـن أيـن تـأتي العـذارى الـلاتي يوطـأن في كل يـوم عـلى حـد كلامهـم، لم يُجِـرْ أي منهـم حينئـذٍ جوابًـا. في مـصر أيضًـا تكـثر الطيـور عـلى اختـلاف أنواعهـا، كـما تتوفـر ثمـار الأرض عـلى تبايـن صنوفهـا، إلا أن النبيـذ قليـل؛ بسـبب تعاليـم الديـن هنـاك، مـع أن طبيعـة الأرض تسـمح بجنـي وفـرة مـن الكـروم حـال زراعتـه.

(١) يقصد الحور العين.

■ الفصل الخامس

الرحلة إلى دمشق عبر صحراء سيناء

سافرتُ من (بابليون) إلى دمشق (Damascus) مدة عشرين يومًا، عبْر صحراء لم أجد فيها شيئًا من زراعة؛ حيث لا ينبُت سوى شجيرات صغيرة، في أماكن قليلة من التربة الرملية التي هناك، على الرغم من انتشار السهول والجبال. والمناخ في تلك الأرض بالغ الجِدَّة؛ فالشتاء بارد بشدة، والصيف حار إلى المنتهى، ويقابَل السفرُ هناك بصعوبات جمَّة، ويفتقر إلى الأمان، وحين تهب الرياح، تحمل الرمالَ لتتكاثف وتغطي الطرق، التي نادرًا ما يعرفها أحد فيما عدا البدو (Badovinis)؛ فهم دائمو الترحال فيها، وهم إذ يتولّون إرشاد المسافرين بها، فإن مَثَلهم كمثل البحَّارة للمسافرين عبر البحر.

واعلم أن في تلك الصحراء أسودًا تعيش، وهناك نَعَام وخنازير، وثيران برية وحمير، أو بالأحرى أتُن برية، وكذا هناك أرانب برية، والماء فيها نادر الوجود، إلا في رابع أيام السفر وخامسها. ويحُد بحرُ الهند (Indicum)[1] جانبًا من تلك الصحراء، ومن جانبها الآخر تلتقي البحرَ الأحمر (Rubrum)، الذي سرتُ حذاءه مدة ليلتين، ولقد رأيتُ هناك أيضًا اثنتين وسبعين نخلة[2]، في الموضع الذي ضرب فيه موسى الحَجَر فانفجر الماء، ولقد سافرتُ أيضًا عبر جبل سيناء مدة يومين.

واعلم أن في تلك الصحراء أسودًا تعيش، وهناك نَعَام وخنازير، وثيران برية وحمير، أو بالأحرى أتُن برية، وكذا هناك أرانب برية، والماء فيها نادر الوجود، إلا في رابع أيام السفر وخامسها.

واعلم أيضًا أن ليس لأحد أن يعرف أبدًا مساحة تلك الصحراء وتخومها؛ فهي مثل البحر تخلو من معالم الطرُق. ثم كان أن غادرتُ الصحراء، فوجدتُ أرضًا سهلية سكنها المسيحيون في الزمان الغابر، لكنها الآن مدمرة، والزراعة فيها جد نادرة؛ وذلك لوقوعها على التخوم بين المسيحيين والمسلمين (Sarracenorum)، وقد شهدتُ في تلك البلاد مدينة قديمة يقال لها (بُصْرَى)، كان سكانها مسيحيين، ويظهر من آثارها أنها كانت مدينة رخامية عظيمة، ذات جمال فائق وبهجة غامرة، غير أن المسلمين (Sarracenis) سكانها الآن، وذلك في البقعة الصغيرة الباقية منها؛ حيث لم

(١) تظهر هنا حالة من الاضطراب الجغرافي في معرفة حدود البحر الأحمر، وموقعه من خليج عدن والمحيط الهندي.

(٢) الصواب سبعون. [«سفر الخروج»، (١٥/ ٢٧)].

يبق من المدينة سوى ما يشبه القلعة، وهي -على كل حال- منيعة حتى المنتهى. ولقد بلغتُ دمشق بعد مسير ثلاثة من الأيام في أراضٍ تزرعها جماعة كثيفة من المسيحيين، الذين يدفعون الجزية لحاكم دمشق (domino Damasci)[١].

■ الفصل السادس

عن مدينة دمشق وعن صورة مريم المباركة المبجلة على جبل صيدنايا

أما دمشق فهي مدينة شهيرة جدًّا، يحيطها سوران، مع كثرة من الأبراج التي بلغت غاية التحصين. وترد المياه إلى المدينة عبر ينابيع وقنوات، تقع في أماكن متفرقة داخل البلدة وخارجها، لتصل البيوت المزينة، ولتبلغ المباني الأنيقة. والمدينة كثيرة السكان، وهي مزينة بالحدائق الجميلة والبساتين الفاتنة التي تحيطها من جوانبها جميعًا لمسافة طويلة وعبر مساحة واسعة، وترويها -من داخلها ومن خارجها- قنوات من صنع البشر، تجعلها جنة على الأرض. وتكثر هناك الكنائس المسيحية؛ ففي المدينة مسيحيون وعديد من اليهود، وفي ضواحيها ينمو خير أصناف الكروم، واعلم أن دمشق مناخها صحي؛ ففيها يعيش من كبار السن كثير، وتبعد دمشق خمسة أيام قصيرات عن بيت المقدس (Iherusalem)، بينما تبعد عن عكا (Accaron) أربعة أيام.

أما دمشق فهي مدينة شهيرة جدًّا، يحيطها سوران، مع كثرة من الأبراج التي بلغت غاية التحصين. وترد المياه إلى المدينة عبر ينابيع وقنوات، تقع في أماكن متفرقة داخل البلدة وخارجها، لتصل البيوت المزينة، ولتبلغ المباني الأنيقة.

وعلى بُعد ثلاثة أميال من دمشق وفوق بعض الجبال، يقع موضع -سُكناه للمسيحيين- يقال له (صَيْدنايا) (Saydaneia)[٢]؛ وفي منطقة ريفية هناك، تقع كنيسة مُكَرَّسة على شرف العذراء المجيدة، تحوي اثنتي عشرة راهبة عذراء، وثمانية

(١) يقصد بحاكم دمشق (أو سيد دمشق) واليها من قبل السلطان، وكان سيف الإسلام طغتكين (ت ٥٩٣هـ = ١١٩٧م) أخو صلاح الدين نائبًا له على دمشق لما حازها سنة (٥٧٠هـ = ١١٧٤م)، وكانت أموال السلطان في يد القاضي كمال الدين الشهرزوري، وقد ظل على هذا الأمر حتى توفي عام (٥٧٢هـ = ١١٧٦م). انظر: ابن واصل (جمال الدين محمد): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، وحسنين ربيع، دار الفكر العربي، القاهرة، (٢/ ٢٠)؛ الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م)، (٣/ ٢٦٦).

(٢) تقع (صيدنايا) على بعد (٤٤ كم) شمال دمشق، أعلى جبل (قلمون). (Sandoli, Loc. Cit).

مـن الرهبـان، وهـم جميعًـا عاكفـون عـلى خدمـة الـرب والعـذراء المباركـة. ولقـد رأيـتُ في تلـك الكنيسـة لوحًـا خشـبيًا، طولـه ذراع وعرضـه نصـف ذراع، يقـوم في كَـوَّة بالسـور الواقـع خلـف مذبـح تلـك البقعـة المقدسـة، يحفظـه قضبـان مـن حديـد يتبـدى عـلى شـكل سـياج، ولقـد رُسِـمت عـلى اللـوح مـن قديـم صـورة للعـذراء المباركـة، لكـن مـا يثـار الآن عنهـا مدهـش؛ فمـن دون توَقّـف ينبعـث مـن تلـك الصـورة -التـي تجسَّـمت عـلى الخشـب- زيـتٌ ذو رائحـة تفـوق مـا للبلسـان، ويسـتعمِل كثـيرٌ مـن المسـيحيين والمسـلمين (Sarraceni) واليهـود زيـت العـذراء هـذا؛ لأجـل الشـفاء مـن مختلـف الأمـراض.

واعلـم أن هـذا الزيـت لا ينقـص أبـدًا، عـلى ضخامـة المقاديـر التـي تسـتقى منـه، ولا يملكَـنَّ أحـد الجُـرأة حتـى يلمـس اللـوح، وإن أتيحـتْ مشـاهدته لجميـع البـشر، ويـزداد الزيـت عـلى الـدوام إذ يصونـه مسيحي تقـي، فمَـن أخـذ مِـن الزيـت شـيئًا رجـاءَ الشـفاء مـن مـرض أيًـا كان نوعـه، فلسـوف ينـال مـراده مـن غـير ارتيـاب، عـلى أن يمتلـئ بالتقـوى والإيمـان الصـادق، ويعقد قدَّاسًـا مهيبًـا عـلى شرف العـذراء المقدسـة. وفي تلك البقعة يحتشد مسلمو (Sarraceni) الإقليـم كافـة رفقـة المسـيحيين، في عيـدي صعـود العـذراء المجيـدة وميلادهـا[1]؛ لأجـل الصـلاة. وتتجـلى غايـة التقـوى في أداء أولئـك المسـلمين (Sarraceni) لشـعائر دينهـم. واعلـم أن هـذا اللـوح صُنِـع أول أمـره في القسـطنطينية، وصُنِـع الرسْـم الـذي فيـه عـلى شرف العـذراء المباركـة، ثـم نقلـه أحـد البطاركـة إلى بيـت المقـدس، حتـى هبطـت مـن فـوق جبلهـا رئيسـة الديـر المذكـور آنفًـا (صيدنايـا)، وزارت بيـت المقـدس لأجـل الصـلاة، فـإذا هـي تتسـلم اللـوحَ مـن البطريـرك هنـاك، فتنقلـه لتودِعـه كنيسـتها الحاليـة، وقـد حـدث هـذا سـنة (٨٧٠) لتجسُّـد المسـيح، لكـن الزيـت المقـدس بـدأ يسـيل مـن الصـورة بعـد ذاك التاريـخ، ليبقى تدفقـه زمنًـا طويـلًا.

■ الفصل السابع

عن الحشاشين وزعيمهم

اعلـم أن مـن المسـلمين (Sarracenorum) جنسًـا يعيـش في الجبـال عـلى تخوم دمشـق، وكـذا عـلى تخـوم أنطاكيـة (Anthyochie)، وحلـب (Alapie)، شـاع تسـميته -في لغـة أهلـه- بالحشاشـين (Heyssessini)، وعُـرِف

(١) ولـدت مريـم في الثامـن مـن سـبتمبر، وصعـدت إلى السـماء في الخامـس عـشر مـن أغسـطس، وهـما مـن الأعيـاد وفـق الأدبيـات المسـيحية:

Herbert J., Thurston S. J., and Attwater D., op. cit., vol. 3, pp. 331- 334, 506- 507.

في الرومانية (Romano) بشيوخ الجبل (Segnors de Montana)[١].

يحيا هذا الجنس من البشر دون قانون، ويأكل أهله لحم الخنزير، مخالفين بذلك شريعة المسلمين (Sarracenorum)، وهم يأتون النساء بغير تمييز، وخصوصًا الأم والأخت، وهم يسكنون الجبال، في منعة لا تكاد ترام؛ لأنهم داخل قلاع في غاية التحصين احتلوها، وليس لأرضهم من الخِصْب حظ كبير، فيما عدا ما تتقوت به الماشية. ولديهم من بينهم سيد (dominum)، يحمل له القادة المسلمون (Sarraceni) قاطبة خشية بالغة، سواء من كان منهم قريبًا منه، أم بعيدًا عنه، بل حتى جيرانه من زعماء المسيحيين يخشونه؛ لأنه اعتاد قتلهم بطريقة غريبة، على نحو ما سيأتي.

ويملك ذلك القائد (principis) فوق الجبال عديدًا من القصور الرائعة جدًّا، المحاطة بأسوار عالية، ليس بالإمكان عبورها، إلا من مدخل صغير لا يُفتَح سواه، عليه حراسة مشدَّدَة، وإلى تلك القصور يؤخذ من المهد أكثر أبناء الفلاحين هناك؛ لأجل تربيتهم وتدريبهم على اللغات المختلفة؛ وهي: اللاتينية، واليونانية، والرومانية، ولغة المسلمين (العربية) (Sarraceno)، وغير ذلك كثير، وهم يتلقون تعليمهم على أيدي معلمين (أو معلمات) منذ بدء الطفولة حتى اكتمال الرجولة (البلوغ)، وهم يتعلمون أن يطيعوا سيد (domino) ذلك البلد في أقواله كافة، وأوامره جميعًا، وهم إذ يفعلون ذلك فإنه يمنحهم مباهج الجنة، عبر قدرة تفوق ما للآلهة الأحياء، وكذلك يُغرَس فيهم أن من عارض شيئًا أراده قائد (principis) البلاد، فلن يعرف إلى النجاة منه سبيلًا. واعلم أنهم يُحبَسون في القصور من المهد، ولا يمكن لأي من البشر رؤيتهم منذ ذلك الحين، سوى أطبائهم ومعلميهم، وهم لا يتعلمون شيئًا آخر، حتى يستدعيهم القائد (principis) لقتل من يريد، فحين يمثلون بين يديه، يسألهم إذا كانوا يرغبون في تنفيذ أمره فيمنحهم الجنة، عندئذٍ ينْكَبُّ أولئك الشبان على قدمي قائدهم (principis)، ويجيبون مُلبِّين، طائعين لكل ما أمرهم به، بأرواح متحمسة، بلا اعتراض ولا تردد، وفقًا لما تعلموه، ثم يعطي القائد (principis) المذكور كلًا منهم خنجرًا ذهبيًا، ثم يرسلهم إلى القائد الذي تقرر اغتياله.

(١) اللغة الرومانية من اللغات المنحدرة من اللاتينية؛ حيث إنَّ تعبير (segnors) موجود ببعض اللغات الدارجة في أوروبا آنذاك؛ مثل الفرنسية القديمة والبروفنسالية القديمة، وكلاهما انحدر من اللاتينية، وقد أطلق الرحالة هنا لقب (شيخ الجبل) -الذي هو زعيم الطائفة- على الطائفة بأسرها.

■ الفصل الثامن

الرحلة عبر الأرض المقدسة إلى (بابليون) وحول عادات المسلمين

ذهبتُ كذلك من دمشق إلى عكا، مرورًا بطبرية (Tyberiam)، ثم من هناك إلى بيت المقدس، ثم من بيت المقدس إلى عسقلان (Aschalonam)، وهي مدينة صغير واقعة على البحر، شديدة التحصين بالأسوار وبما يكفي من الخنادق، ومن هناك عدتُ عبر الصحراء إلى (بابليون) في رحلة دامت ثمانية أيام، ولقد وجدت ذاك الطريق مغطى بالملح لمسافة ميل طويل، ورأيتُ فيه كثيرًا من الأتن الوحشية والثيران البرية.

واعلم أن هناك ماخورًا ذائعًا للبغايا يقع قرب القاهرة، وتسير السيدات المسلمات (Sarracenorum) في حِجاب، مغطيات بخُمُر من الكتان، ولا يدخلن معابدهن (temple) أبدًا[1]، ويحرسهن الخصيان حراسة مشددة، أما العقيلات منهن فلا يبرحن البيوت أبدًا إلا بأوامر أزواجهن. واعلم أن السيدة لا تجرؤ على استقبال أخيها، ولا أي من أقربائها -رجلًا كان أو امرأة- إلا بموافقة زوجها. أما الرجال فيذهبون -من أجل الصلاة- إلى المعبد (templum) خمس مرات في اليوم والليلة، وهم يعمدون إلى المنادي بدلًا من الأجراس[2]؛ فلقد ألفوا الاجتماع على ندائه في وقار، واعلم أن تُقاة المسلمين (Sarraceni) قد اعتادوا الاغتسال بالماء في كل ساعة؛ فيبدؤون بالوجوه والرؤوس، ثم يغسلون الأيادي والأذرع، ثم الأرجل والأقدام، ثم الأجزاء المخجلة (الفروج) والشرج، ثم يتوجهون إلى الصلاة، وهم لا يصلون دون (طلب) الغفران.

والحقَّ أقول إنهم يؤمنون بأن الرب هو خالق الجميع، ويقولون بأن محمدًا (Maumeth)، نبي (prophetam)، فائق القداسة، وبأنه منشئ (auctorem) شريعتهم (دينهم) (legis)؛ فلقد اعتاد المسلمون (Sarraceni) زيارته دومًا في رحلات حجهم (pregrinationibus)، مبجلين إياه غاية التبجيل، يستوي في ذلك قريبهم منه وبعيدهم عنه، كما يُكِنون تقديرًا لطائفة من الشخصيات الأخرى من منشئي (auctores) شريعتهم (دينهم). وبمباركة شريعتهم يُسْمَح لكل مسلم (Sarraceno)، بأن يتزوج سبع زوجات معًا في الوقت نفسه، وعلى كل زوج أن يوفر

(١) يقصد المساجد.

(٢) يقصد بالمنادي المؤذن.

مختلف المطالب، من الأموال المتفق عليها في عقد زواج كل واحدة منهن.

وفوق ذلك كله، ومع أن عدد الزوجات هكذا كبير، فهناك امتلاك للإماء أو للخادمات، ويعد الفجور بهن أمرًا مباحًا، لا يورث صاحبَه ذنبًا، فإذا صارت إحداهن حبلى، حررها سيدها من الرق على الفور، ويستطيع المسلم (Sarracenus) أن يعيِّن ورثته من بين أبنائه وفق رغبته، سواء أكانوا من زوجاته الحرائر أم كانوا من الإماء، ومع ذلك فإن كثيرًا من المسلمين (Sarraceni) الموسومين بالتدين ليس لهم من الزوجات إلا واحدة؛ حيث يباح لهم الزواج بأقل من سبع زوجات، دون زيادة، إلا ما كان من خليلات، حسبما ورد أعلاه[1].

■ الفصل التاسع

عن بعض التأملات من وحي هذه الحقائق

بعد كل تلك الحقائق، لا بد من تأمُّل الرحمة اللامتناهية للفادي، والتي لا يفتقدها صالح أو مذنب؛ إنها المنحة التي تعين على الخلاص من الذنب؛ فالرب يمنح الصالحَ ويمنح المذنبَ، يهب المسالمَ، ويهب مَن يخشون كلمته، فجميعهم ينال مكافأة الحياة الأبدية، وفي رؤية هذا من الروعة منتهاها، ومن البهجة أوضحها.

ومع هذا، ففي بعض الأحيان يمكن للمذنبين -الذين سيعانون إلى الأبد- أن يتمتعوا في الحياة الفانية حتى حين؛ فيسودون البلاد الطيبة، موفورة القمح والكروم والزيت، ويتمتعون بالذهب والفضة، وبالأحجار الكريمة، والملابس الحريرية، ويسعدون بوسائل التزيُّن، وبكل طلاء ذي رائحة نفاذة، وينهلون في جشع من كل ما يرونه؛ فهؤلاء يصدق عليهم قول (إسحق)، بعدما سعد ببركة (يعقوب)؛ قال (إسحق): (في دسم الأرض يكون مسكنك ومن ندى السماء من فوق»[2]، ويمكن أن يتأكد هذا كله بكلمات من الرب الذي يقول: «وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لَاعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ. لِكَيْ تَكُونُوا

(١) غني عن البيان ما في بعض هذه المعلومات من أخطاء؛ لا سيما عدد الزوجات.

(٢) النص مذكور على نحو معاكس لهذا، والصواب: «**فَأَجَابَ إِسْحَقُ أَبُوهُ: هُوَ ذَا بِلَا دَسَمِ الْأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ، وَبِلَا نَدَى السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ**». [«سفر التكوين»، (٢٧/ ٣٩)].

أَبْنَاءَ أَبِيكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسُهُ عَلَى الْأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الْأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ»[١]، ويقول (داود): «هُوَ ذَا هَؤُلَاءِ هُمُ الْأَشْرَارُ، وَمُسْتَرِيحِينَ إِلَى الدَّهْرِ يُكْثِرُونَ ثَرْوَةً»[٢].

ومع أننا نفسر الأرض والمطر والثروة -في المقاطع السابقة- بما هو دنيوي، فهناك مواضع أخرى يُقصَد فيها بالمطر رحمة روح القدس، كما يقول داود نفسه: «يَنْزِلُ مِثْلَ الْمَطَرِ عَلَى الْجُزَازِ»[٣]، وفي هذا إشارة إلى حقيقة (جدعون)[٤]؛ فالمقصود بالمطر هنا رحمة روح القدس، مثلما حدث لمريم العذراء الطاهرة التي حملت، وأنجبت ابن الرب، وكانت أمًّا، وبقيت عذراء، كما جادت الأرض بثمارها حين بارك الرب ابنَ العذراء ثمرة رحِمها المباركة، إنه المسيح مُخَلص العالم.

تعقيب المؤرخ (أرنولد):

(يكفي ما تقدم عن أحوال هؤلاء الأغيار (Gentilium)... والآن نعود إلى وصف أحداث التاريخ).

(١) «إنجيل متى»، (٥/ ٤٤، ٤٥).

(٢) «سفر المزامير»، (٧٣/ ١٢).

(٣) «سفر المزامير»، (٧٢/ ٦).

(٤) ورد ذكره في الكتاب المقدس، [«سفر القضاة»، (الإصحاحات: ٦- ٨)]، وهو أحد قضاة بني إسرائيل الصالحين.